

## الإسلام في القرن المقبل

د . إسماعيل الفاروقي

مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي — واشنطن

ترجمه عن الانكليزية

صلاح الدين حفني

وزارة التربية — الكويت

المواجهة المسلحة . ووسائل الإعلام فيها  
والمؤسسات التعليمية في معظمها تعبر عن  
رأي القوى المحلية أو الأجنبية التي تناهض  
الإسلام وحضارته .

وما يجعل المواجهة أكثر شؤماً أنها ليست  
قاصرة على ضخامة العقبات في الطريق أو  
على الوضع المتخلف المرعب للعالم  
الإسلامي بالمقارنة بالعالم الغربي في قوته  
المادية ونفوذه العسكري .

لقد كانت الأمة الإسلامية في القرن  
السابع لا تتجاوز تلك الأعداد البسيطة في  
شبه الجزيرة العربية وقد ووجهت بالامبراطورية  
الفارسية والامبراطورية البيزنطية ذائعتي  
الصيت آنذاك .

يتجه العالم الإسلامي في الوقت الحاضر  
نحو مرحلة حرجة من مراحل تاريخه ، فهو  
يواجه المدنية الغربية بكل ما فيها من زيف  
وانحراف ، وبكل ما فيها من تجرد من  
الانسانية وتكرر لها .

تلك المدنية التي فرضت نفسها على  
أرجاء العالم تقريباً وتحاول جاهدة أن تفرض  
نفسها على العالم الإسلامي . ولقد حاولت  
ذلك في فترة الاستعمار المكشوف بالقوة  
السافرة ، أما في فترة ما بعد الاستعمار فهي  
تحاول ذلك بأساليب أكثر دهاءً وخبثاً .

والعالم الإسلامي اليوم مقسم إلى دويلات  
متناحرة تصل الخلافات بينها إلى درجة

وبعد قرن من الزمان ، أصبحت نفس الأمة أكثر عدداً وأحرزت انتصارات عسكرية واسعة في نفس الوقت الذي كانت محرومة فيه من العلم والتكنولوجيا ومن فرصة التمدن .

لقد واجهت ثلاث حضارات ممزقة .. الحضارة اليونانية والحضارة الفارسية والحضارة الهندية . وقد انبثق النصر من جديد فقد امتصت هذه الأمة واستوعبت كل ما يمكن أن تقدمه هذه الحضارات بل وأثرتها بالتجربة والبحث . ثم أعادت صياغة الثقافة الإنسانية والمدنية في أطُرٍ وقوالب تتفق والروح الإسلامية .

لقد كان الخلق فريداً .. حضارة جديدة ، قوامها التوحيد الخالص واثبات الوحدةانية المطلقة والتنزيه لله سبحانه وتعالى .

وبذلك مكنت الحضارة الإسلامية المجموع التي اعتنقت الإسلام على اختلاف أصولها العرقية ، وعلى اختلاف مذاهبها الاعتقادية من مسيحية ويهودية ، زرادشتية وبوذية وهندوسية — مكنت كل هؤلاء من الانضواء تحت راية الإسلام ، بل واعتبروه قضيتهم وجعلوه يعيد صياغة حياتهم طبقاً لمنطقه الخاص من القيم والأخلاق .

وعلى ذلك ، فالفرق بين الأمة الإسلامية

في تلك العصور القديمة ومسلمي هذه الأيام ، هو غياب الرؤية الإسلامية الواسعة الشاملة التي أشرقت عندهم وغابت عندنا .

وبتحديد أكثر .. بينما كانت الرؤية الإسلامية كشعلة متوهجة في عقول وقلوب أنصارها الأوائل فإن نورها قد أعمت وجذوتها قد خبت عند أتباعها الحاليين . وقد أسهمت هذه الحقيقة الفريدة أكثر من غيرها في انحدار المسلمين ، وإذا لم نكتشف طريقاً لإعادة إشعال جذوة الإيمان من جديد وتقوية عزيمتنا بنفس معيار الطاقة والفاعلية .. فإن المعركة الدائرة أمام أعيننا بين الحضارات ، ربما تتأق نتيجة على غير ما نتمنى نحن المسلمون .

وهي بناءً على ذلك أصعب من أن يدركها أي دارس لتاريخ العالم المعاصر ليتعرف من خلالها على عوامل الاستقرار والاستمرار في الأمة الإسلامية ، أو ليتعرف على عوامل التغير والاضطراب فيها .

## ١ — الاستقرار والاستمرار :

### أ — الإيمان :

إن الإيمان في الدين الإسلامي أعني جوهر العقيدة ، الذي يسميه المسلمون التوحيد .. هو حقيقة حية راسخة اليوم كما كانت بالأمس . إنه تصديق باللسان وإقرار بالجنان . إنه مكون من الاعتراف بالكمال

المطلق الغيبي لله سبحانه وتعالى وهذا الاعتراف يترتب عليه بالتبعية الحقائق التالية :

١ — أن الحقيقة ذات وجهين ، خالق متعال . وخلق تاريخي مفصول بهوة وجودية لا يمكن عبورها .

٢ — وأن الخالق سبحانه شديد القرب من مخلوقه لدرجة أن إرادته تكون ما ينبغي أن تكون عليه إرادة مخلوقاته ، ويعبر عن ذلك بسنة الله في خلقه أو النواميس الإلهية .

٣ — أنه يقع على عاتق البشر تحقيق الأهداف العليا لهذه النواميس وبالتحديد القيم الأخلاقية في حرية ، بينما يتعين على سائر المخلوقات — من غير البشر — أن ينفذوا ما عدا ذلك من مكونات الناموس بحتمية القانون الطبيعي .

٤ — أن البشر مفطورون على الخير مزودون بالمواهب الطبيعية ويتسخّر الطبيعة لهم .

٥ — أن معيارية الواجبات وتطويع الطبيعة للإنسان وتمكينه منها ، كل ذلك يتطلب الحساب — وبالتالي الثواب والعقاب — على الأفعال الفردية كما هو على الحياة كلها .

هذه الحقائق المنطقية والدقيقة ، ليست مجموعة من المتناقضات ولا هي تأكيدات عقائدية يمكن أن تقبل أو ترفض لجرد الإيمان بها أو إنكارها . بل لا يمكن معارضتها أو تكذيبها .

ولا يستطيع إنكار هذه الحقائق إلا ساخر أو موغل في شكه ، والانكار في هذه

الحالات لا يترتب عليه شيء ذو بال .

بالطبع يمكن معارضة تلك الحقائق ، وغالباً ما يحدث ذلك من قبل أولئك الجهلة العاجزين عن إدراك أهداف دعواهم .

لقد شهد هذا القرن أنواعاً عديدة من الماديين والروحانيين الذين يعرفون الحقيقة من جانب أو آخر ، ومن العلمانيين الذين لا يعترفون إلا بالحواس كوسيلة للإدراك وينكرون ما عداها من وسائل .

والفتنة السائدة من بين هذه الفئات المختلفة ، أولئك الذين يخلطون حقائق العلوم ببعضها ويخرجون بادعاءات عن بداية الخلق ونهايته وكأنها مسلمات تجريبية .

حتى الشاكّون والقائلون بنظرية العدمية — أي مآل الكون والخلق إلى العدم — الذين يناقضون أنفسهم كل ساعة بممارستهم مالا يعترفون به .

والمدهش ، مع ذلك ، أن أولئك الذين أوتوا موهبة الأمانة الفكرية وصواب الرأي لا يستطيعون الإذعان لتلك الأدلة المنطقية التي تدعم هذه الحقائق الأولية .

هذه المنطقية ... معقولة مضمون العقيدة الإسلامية تعطيها قوة ضخمة وتجعلها ذات مناعة ضد أي هجوم .

وبفضل هذه المعقولة ، صمدت العقيدة الإسلامية أمام المحن في الماضي . ونستطيع أن نجزم أنها ستكون قادرة على الصمود والمواجهة في القرن المقبل .

ب — إن الناقدين للقرآن الكريم والحديث الشريف غالباً ما يندرجون تحت واحد من الأصناف التالية :

المفكرون الرغبيون الذين لا يعتمدون على الحقائق ، والمفكرون غير المتعلمين ، وأحياناً ينتمي الناقد إلى كلا النوعين جامعاً للصفتين معاً .

إن هجومهم على القرآن الكريم يتكون من ثلاثة مزايم :

**الزعم الأول :** الادعاء بأن القرآن لم يُخضع لما خضع له الإنجيل من اختبارات علمية موضوعية وكذلك الدراسات اللغوية من حيث النحو والصرف ودراسة النص من الناحية التاريخية والسلالية والصيغ التطورية ، وللقند الاسلوبي والمقارن .

**الزعم الثاني :** أن المسلمين — ولمدة طويلة — لم يستطيعوا مواجهة ضغوط المدنية الحديثة ، وأن القرآن سوف يخضع لما خضع له الإنجيل من نقد وتحليل ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، سواء قام بذلك العرب أم كان بفعل الاستشراق الغربي الذي يتقدم بخطى واسعة .

**الزعم الثالث :** وهو رغبة في نفوسهم أكيدة — أنه كما فقد الإنجيل — بالنقد والتحليل — الإيمان المطلق به والولاء التام الذي كان يفرضه على قطاع كبير من اليهود والمسيحيين ، كذلك سوف يتسبب النقد أخيراً في أن يفقد القرآن سيطرته على عقول وقلوب المسلمين .

إن إحكام النص القرآني أمر لا يقبل المناقشة ، فالنص الذي بين أيدينا اليوم قد روى على النبي ﷺ ، بنفس الترتيب وبنفس التفاصيل بكامله خلال شهر رمضان من كل سنة طوال فترة النبوة ، وقد حفظ عن ظهر قلب من الصحابة الذين نقلوه إلى التابعين وهكذا حتى وصل إلى مئات الملايين من المؤمنين به حول العالم ، بنفس الترتيب وبنفس الدقة والتفصيل . لقد كان شاهداً وحكماً في كافة المنازعات التي قامت بين المسلمين . تلك المنازعات التي عرضتهم إلى إراقة الكثير من الدماء .

لقد وجد دون تغيير في صيغته المكتوبة اللهم إلا بعض التحسينات الخطية التي أدخلت منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث جمع القرآن كله في مصحف واحد متفق عليه .

ولم يناقش أي إنسان سلامة واكتمال الثقة في أي جزء أو آية من آيات القرآن الكريم منذ عهد النبي ﷺ .

حقاً لقد وجد بعض الاختلاف في نطق بعض ألفاظه وذلك راجع لاختلاف لهجات اللغة العربية ، وقد قرئت أمام النبي ﷺ ووافق عليها .

كما يوجد قليل جداً من الاختلاف في ترتيب بعض الألفاظ التي يعرفها كل دارس لعلوم القرآن وأيضاً وافق عليها النبي ﷺ وهي لا تؤدي بأي حال إلى أدنى تغيير في المضمون ولا في إحتوائها على النظريات القيمة والأخلاقية .

ومنذ نزول الوحي بالقرآن الكريم فقد أصبح نصاً عاماً ميسراً وكتاباً شائعاً يملك كل مسلم نسخة واحدة منه على الأقل ويحفظ عن ظهر قلب قدرًا لا بأس به من كثرة تكراره وترديده .

إن آياته البينات يستعملها الملوك والمعوزون على السواء في زخرفة بيوتهم وتزيينها ، ويتمنى كل إنسان — وغالباً ما يحاول — أن ينسخ القرآن الكريم بخط يده بشكل منمق جميل . ودراسته تكسب دارسيه شرفاً ما بعده شرف ، ولقد ساهم في نهضة فروع من العلوم الحديثة مثل القواعد وعلم الصرف وعلم المعاجم واللهجات والبلاغة وحتى في النقد الأدبي ، وكل سلسلة الفروع المتعلقة بنقد النصوص وتحليلها .

وأي قراءة لقائمة مؤلفات العالم جلال الدين السيوطي صاحب الاتقان في علوم القرآن ، أو العالم الزرقاني صاحب مناهل العرفان في علوم القرآن ، أو العالم الزركشي صاحب البرهان في علوم القرآن .. هذه القوائم كافية لإقناع أي إنسان بالتنوع الكبير لفروع المعرفة التي استحدثت خصيصاً لتفسير وتوضيح مناسبة كل آية لمكانها في السياق . وكذلك لتوضيح المعنى ، وتاريخ المعنى الذي تتضمنه كل كلمة — والاستعمال الموازي لنفس اللفظ في اللغة العربية وتطبيقاته في القانون وعلم الاخلاق والتاريخ وحشد كبير من فروع المعرفة التي تتعلق بالفكر والحياة .. والمقارنة نجد أن نقد وتحليل الإنجيل قد جاء متأخراً .. وليس لديه ما يقدمه لدارسي علوم القرآن ، ولا يوجد شيء إلا ويجده الدارس قد فصل في التراث الإسلامي .

أما بالنسبة لعلوم الحديث ، فلم تكن جهود المسلمين فيها أقل مما بذل في علوم القرآن بل وبنفس الدقة ، وبغض النظر عن مناهج تحليل النص التي تعلموها من دراسة القرآن الكريم ، والتي طبقها المسلمون على علوم الحديث ومتونه تحت عنوان كبير وهو النقد الذاتي ، فقد طوروا سلسلة من فروع المعرفة مصممة للتأكد والاستيثاق من صحة النقل الشفهي .

إن تراث الانسانية الشفهية قد مرّ دون التحقق منه ودون أن يكون قابلاً لذلك حتى تم اختراع أجهزة تسجيل الصوت حديثاً .

ولم يستخدم في أي مكان فن علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ليبنى عليه تراث شفوي موثوق به إلا في علوم الحديث .

لو أن هذه العلوم استخدمت لتوثيق التراث الشفوي الذي تكوّن منه فيما بعد ما يعرف بالعهد القديم أو ما بنيت عليه أصول الديانة المسيحية ، لكانت هاتان الديانتان العالميتان على غير ما هما عليه الآن .. من استطع أن يخمن النتائج ؟

ولو أن الفنون النقدية الدقيقة لعلوم الحديث ، كانت قد استخدمت في توثيق رواية سفر ( Deuteronomic ) التي رواها يوشع أو عزرا أو نيهيميا من أعضاء مجلس جامبيا ( Yibna ) أو في توثيق التلمود الفلسطيني أو البابيلوني ، أو في توثيق ترجمة العهد القديم ( Septuagint ) الذي ترجمه حاخامات العصور الوسطى . أو توثيق مؤلفات ماثيولوك ومارك وجون وبول ، وأولئك البابوات الذين ملأت كتاباتهم مجلدات كثيرة ، لو كان هذا حدث .. فكيف كان التراث الشفوي المكوّن للهندوسية والبوذية سيصمد أمام التمهّص الدقيق الذي طبقه المسلمون على أقوال نبيهم ﷺ ؟

إن هذا لا يعني أن الدراسات حول الموضوعات الإسلامية قد اكتملت وانتهت ، أو أن العلماء قد فرغوا ولم يصبح لديهم ما يفعلونه ، فذلك موقف الجهلاء الذين يتخذون غير الطريق الحق . ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ . ( قرآن كريم ١٨ : ١١٠ )

وعلى وجه التحديد ، إن البحث عن المعرفة الدينية لا ينتهي ، لأنه أبدى ... وبدقة أكثر لأن الهدف من البحث هدف غيبي فهو لذلك غير قابل للنفاذ .

وعلاوة على ذلك نجد أن تطبيق المعرفة الدينية على الحياة ومشاكلها غير محدود لأن الحياة نفسها غير محدودة في احتياجاتها وأوضاعها .

ومع ذلك يمكننا أن نطل واثقين من أن الاكتشافات النقدية للإنجيل ... على سبيل المثال .. ومن أن التوراة لم تكتب بواسطة موسى عليه السلام ، أو أنها تحتوي على تجاوزات تاريخية وأنها تتضمن لذلك تجاوزاً في المعلومات الجغرافية والحساب . أو أن رعاة الكنائس الأوائل — وليس المسيح عليه السلام — هم الذين أمّلوا التصور المسيحي عن ذات الله سبحانه وعن الإنسان وعن الخلاص وعن الكتاب المقدس بل وعن

الكنيسة نفسها . وكل تلك التصورات لا مكان لها بالنسبة للقرآن الكريم .

فالشريعة هي تجسيد للتصور الإسلامي .  
إن الشريعة الإسلامية شريعة إلهية  
باعتبارين :

**أولهما :** باتحادها مع التصور الإسلامي أو  
باشتقاقها منه بقدر ما تحتويه من مبادئ  
أخلاقية ، هي مضمون الإرادة الإلهية .

**ثانيهما :** احتوائها على عدد من التصورات  
المحددة سلفاً لأنها مأخوذة من القرآن الكريم  
مباشرة .. وفي كلتا الحالتين يمكن أن يقال  
إن الشريعة الإسلامية شريعة إلهية طالما أن  
الإرادة الإلهية معروفة للبشر .

وهذا النوع من المعرفة ( - in - God  
Percipi ) يختلف مع التصورات الأخرى  
التي تعتبر الإله مجهولاً بصفة مطلقة ( God  
- in - esse ) من قبل البشر .

والمشيقة الإلهية معروفة في القرآن  
والسنة ، وهي بالنسبة للمسلم واضحة كل  
الوضوح وتكون العمود الفقري للحياة على  
الأرض ، وفضلاً عن أنها تتناول الأمور  
الاعتقادية والحقائق الدينية المقدسة التي  
ذكرت من قبل ، فهي تتضمن كذلك  
المحرمات أو المحظورات ( كالدم ولحم الخنزير  
والخمر والميسر والأضنام والربا ) . كما أنها  
تتضمن الحدود أو القوانين الجنائية ( كالزنا  
والسرقة وقطع الطريق والردة .. إلخ ) ..  
وقوانين الأحوال الشخصية ( كالقوانين التي

إن بعض الأحاديث في واحد أو أكثر من  
كتب الجوامع الحديثية المقبولة ربما يتحول  
بالتحقيق الدقيق إلى حديث غير موثوق  
بسنده ، وهذه الحقيقة لا تزجج الباحث  
المسلم لأنه يعلم تماماً تعدد الدرجات في  
الصحيح . فهناك الحديث القدسي  
والحديث الحكمي والحديث الفعلي ،  
والحديث المتواتر ، وحديث الآحاد والمسند  
والتصل والغريب والمشهور والحسن .. الخ .

في النهاية .. فالنقاد المتحيزون الذين  
يظنون أن الاتجاه النقدي للمدنية جاء بكل  
تأكيد ليفسد على المسلمين إيمانهم وولاءهم  
لكتابهم المقدس .. هذا الاعتقاد مبني على  
تشبيه القرآن بالإنجيل وقياسه عليه ، ولكن  
القرآن يختلف عن الإنجيل في المحتوى وبالتالي  
فمناشدهما لعقول الناس مختلفة شكلاً  
وموضوعاً .

وبالتالي فليس من الضروري أن ما حل  
بالإنجيل من فقدان الثقة به والولاء له سوف  
يحل أيضاً بالقرآن الكريم .

### ج - الشريعة :

إن أروع ما يميز الروح الإسلامية هو  
الشريعة ، ويعتبر الفكر الأصولي لدى  
المسلمين مظهر من مظاهر قوتهم .

تخص الأسرة من زواج وطلاق ونسب وميراث) . أما ما تبقى من الشريعة فهو من أعمال البشر ، مفصل ومدرّس حسب مصالحهم وتصورهم في حدود التعاليم القرآنية الأساسية ( العدالة والمساواة والحرية والإحسان .. الخ ) . مسترشدين في ذلك بالسنة النبوية الشريفة .

وإذا كان التوحيد يشكل ماهية الإسلام وأنه ثابت وغير قابل للتغير على الإطلاق .. فإن الشريعة تكون كيفيته . وهي ثابتة إلى حد ما عندما تكون نابعة من القرآن والسنة في صيغتها الشكلية ، وتكون متغيرة نسبياً عندما تأخذ صيغتها الشكلية من البشر .

لقد أسس الفقهاء قديماً علم أصول الفقه كسيد لكل العلوم عندما أدركوا كل الإدراك أن النظرة الإسلامية لدى الفقهاء لن تنضبط انضباطاً شاملاً عند تجسيدها أو تطبيقها إلا بعلم الأصول . وكذلك لأن شطراً كبيراً من الشريعة قابل للإجتihad وللتفسير المتجدد المتغير .

يتكون هذا العلم — علم أصول الفقه — من المبادئ الأساسية لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومن القواعد التي بها تستنبط الأحكام من هذين المصدرين الرئيسيين ، ومن المبادئ المنظمة لصياغة الأحكام التي لا تستنبط من هذين المصدرين مباشرة .

وبالنسبة لفهم النصوص ، اجتهد العلماء في وضع قواعد النحو والصرف في اللغة وكذلك علم المعاني ودلالات الألفاظ وكذلك علم التفسير .. وقد أسست كل هذه العلوم على ما تحمله اللغة العربية من حسن موروث عبر الأجيال .

وكذلك استنبط المجتهدون قواعد القياس من الاستدلال المنطقي والناظري .

وبالنسبة لاستنباط أحكام جديدة ، فقد حدد علم الأصول مقاصد الشريعة وكيفية الاستنباط منها بدقة في غيباب النص القرآني ولكن من خلال الواقع العملي لحياة الناس ( كالاستحسان أو المصالح المرسلة أو الاستدلال أو استصحاب الحال ) .

كل ذلك بالإضافة إلى الاستدلال القياسي وهو النوع الوحيد الذي سماه الفقه الشافعي إجتihadاً .

ذلك التأويل المنطقي المبدع الذي اعتبر مصدراً من مصادر الشريعة تالياً للقرآن . لقد عضد الفقه الشافعي ذلك المصدر الفعال بالمقولات التالية التي تعتبر أول مبادئ وضعت لصناعة القوانين :

١ — الحكم الناشئ عن علة يدور معها وجوداً وعدمًا .

٢ — قد تتغير الأحكام بتغير الأزمان



( الظروف والأماكن .. الخ ) .

٣ — لم يجعل الله سبحانه في الأحكام الشرعية مشقة ولا حرجاً على الناس .

٤ — الضرورات تبيح المحظورات .

٥ — المشقة توجب التيسير .

ولقد وقفت الحركات التي يمثلونها بصلابة خلف ضرورة الاجتهاد . وأن التحديث تحيد وحقيقة تجريبية دون نقاش . وكذلك حقيقة أن المسلمين الذين يواجهون التحديث يلجأون إلى فعالية الشريعة للوصول إلى التحديث المطلوب .

وهكذا فالشريعة ليست فقط نظاماً كلياً محكماً شاملاً من القوانين تحكم كل مظهر من مظاهر السعي الإنساني ، بل إنها متفاعلة قادرة على التغير والتطور ، وقادرة على متابعة تيار الحياة بكل اتجاهاتها . وممسكة بيدها نحو مقاصد الشريعة الإسلامية . ونحو تحقيق الأهداف التي من أجلها سنّت هذه القوانين .

أما هؤلاء الذين يقفون جامدين أمام التحدي فلا اعتبار لهم ، وسوف يقصمهم التاريخ جانباً كما سوف تجرفهم قوى الإسلام الفعالة والخلاقة .

لقد أفاد المسلمون أنفسهم من هذه الفعالية خلال التاريخ .

إن الشريعة الإسلامية بطبيعة بنائها المرنة واستعدادها للتوافق مع متطلبات كل عصر مع الحفاظ على هويتها النقية ، ستستمر كما كانت منذ البداية مناسبة لكل زمان ومكان .

حقيقة أنه عقب القرن الثالث عشر كان المسلمون محافظين على غير ما ينبغي ، عازفين عن استعمال منابع الفعالية التي بين أيديهم . وهذه الحالة التي تأتي وتذهب وقد أتت وذهبت فعلاً . ولمدة مائة عام أو يزيد نادى كل مسلم جدير بالاعتبار بإعادة فتح باب الاجتهاد . وأعظم مثال على هذه الدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية قطب القرن الرابع عشر وأقرب منه عهداً محمد بن عبد الوهاب وشاه ولي الله الدهلوي ومحمد بن علي السنوسي ومحمد أحمد المهدي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وحسن البنا وأبو الأعلى المودودي .

لقد اتخذت بعض الإصلاحات المطلوبة مكانها فعلاً في قوانين الأحوال الشخصية في بعض الدول العربية والإسلامية مثل سوريا والعراق والجزائر وتونس وباكستان واندونيسيا وغيرها .. أما في مجال القانون المدني فمعظم الدول الإسلامية مازالت محكومة بالقوانين التي كانت موجودة منذ عهود الاحتلال . وجدير بالذكر أن الأردن كان رائداً في تبني دستوراً مدنياً حديثاً مؤسساً كلية على مبادئ الشريعة الإسلامية ، وقد أعد هذا الدستور أحد كبار رجال القانون المعاصرين وهو فضيلة الشيخ مصطفى الزرقا .

الكريم بقوله ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ (١٧: ٧١) إن حديث الإحصائيين عن أن التعارض بين النمو السكاني بمتوالية هندسية وبين النمو الاقتصادي بمتوالية عديدة سينتهي حتماً بكارثة ، هذا الحديث أشبه ما يكون بتخويف لهم .

إنهم يعتقدون أن الكارثة سوف تحل بالطبقات الحاكمة أولاً . ثم بالطبقات الرأسمالية بعد ذلك ، أما بالنسبة لهم ، فهم واقعون تحت وطأة الفقر ، ولن يضيف التمرد السياسي أو الاجتماعي والاقتصادي إلى معاناتهم الشيء الكثير .

ثالثاً : لقد علمهم إيمانهم أن عطاء الله سبحانه ماله من نفاذ كما تعلموا بإيمانهم أن العلم والتقنية لا حدود لهما يتوقفان عندها . وأن حقهم في الانتفاع بالطبيعة بما أوصلهم إليه العلم والتقنية لا حدود له .. وبهذه العطاءات فإن مسلمي العالم يتزايدون بمعدل ١.٠٠٪ كل ٣٠ — ٤٠ سنة تقريباً . وسوف يبلغ تعدادهم غالباً — بعد مائة سنة من الآن — حوالي ٢ — ٣ بليون نسمة — ما لم تحدث كارثة عالمية .

## ٢ — عوامل التغير والاضطراب :

أ — التعليم : لقد انحرفت رغبة المسلمين في المعرفة — خلال فترة الانحدار ( القرن

وبكل تأكيد يستطيع الانسان أن يجزم أن بقية العالم الإسلامي سوف يتبع هذه الجهود الرائدة إن عاجلاً وإن آجلاً .

## د — التحليل الإحصائي :

يبلغ تعداد مسلمي العالم اليوم أكثر من بليون نسمة ولا توجد قوة تدميرية أو تخريبية تستطيع أن تمحوهم من على ظهر الأرض ، وفضلاً عن إيمان المسلمين بضرورة دعوة غيرهم إلى الإسلام ، فهم أنفسهم يتزوجون من غير المسلمين وينجبون ويحشون عن الخدمات الطبية والغذائية والصحية ليحملوا الإيمان إلى سلالاتهم وأجيالهم القادمة ، وعلى الأرجح سوف يستمرون في الزيادة بالتوالد وباعتناق عناصر جديدة للدين الإسلامي فالمسلمون يتزايدون بمعدلات أسرع من معدلات معظم المجتمعات الأخرى .

إن العوامل التي أدت إلى الأخذ بنظام إيقاف النمو السكاني في الغرب (ZERO GROWTH) لا توجد فرصة لقبولها لدى جماهير المسلمين . فالعوامل الاقتصادية أو الرغبة في رفع مستوى المعيشة بالحد من عدد الأفواه المطلوب لإطعامها ، أو الرغبة في زيادة فرصة التمتع بوقت الفراغ نتيجة للعناية بعدد أقل من الأطفال .. كل ذلك يسير في طريق ينافي قواعد الأخلاق والقيم الإسلامية .

فالحق سبحانه وتعالى يأمرنا في القرآن

١٣ - ١٩) - بسبب انغلاق المنهج الصوفي وتسلط شيوخته واتخاذهم طريقاً مبتسراً لأصلاح النفوس وتركيتها من خلال الشعوذة وما يصاحبها من أعمال السحر والتفديس والتنجيم والخرافات .

وينفس الدرجة فقد أوهن التصوف من عزمة المسلمين وجعلهم عازفين عن الاندماج والتغلغل في شئون الأمة العامة وتحمل مسئولية ترشيدها وإدارتها .

لقد أغرت الصوفية المسلمين بالسكون والانعزال في الزوايا وبنكران الذات بعيداً عن العالم والتاريخ .

ولقد وقعت الأمة الإسلامية المحرومة من اليقظة الجماهيرية غنيمة للسلطين المستبدين الذين سخرُوا الطاقات لخدمة مصالحهم وأمجادهم . مما جعل إهتمام الجماهير بشئون الأمة أمراً بغيضاً وكريهاً .

كل هذا الانهيار الذي حملته السحابة الصوفية السوداء - قد استغرق قرنين من الزمان ومازال مفعوله قائماً أمام أعيننا .

وفي كل إقليم من العالم الإسلامي تياران مسموح لهما بالعمل لمناهضة الصوفية .. ولكل منهما دوافعه التي تختلف عن الآخر وربما تكون الأهداف متضاربة .

القوة الأولى تمثلها الحركة السلفية أو حركة إحياء التراث ، والثانية تمثلها محاولات المعاصرة أو التحديث .

والسلفية في أصلها روح إسلامية صافية نابعة من الإيمان الحقيقي . لقد أدرك المسلم إنطلاقاً من إيمانه أن زيف التاريخ وانحرافه يكون بابتعاده عن مبادئ الإيمان . لقد أدى وعيه بالديانات السماوية إلى إعتبار التاريخ دالة على استقامة الإنسان أو عدم استقامته .

والتي جعلها الله نتيجة لإختيار الإنسان . السير في طريق الخير أو الشر . ومن هنا كان من الطبيعي بالنسبة للمسلم أن يفكر بإعادة بعث التاريخ ومكانة المسلمين فيه ، الأمر الذي يجب أن يسبقه بعث الإيمان من جديد ، بقيمه وتطبيقاته في قلوب المسلمين وحياتهم .

ولذلك فإن نموذج الرسول ﷺ وصحابته والذي وضعه الإسلام دائماً معياراً للصالح مع الاهتداء بهدى القرآن الكريم - هو المثال الذي يجب أن يعود إليه كل المسلمين .

السلفية إذن ليست إلا عودة إلى سنة الرسول ﷺ وصحابته الكرام كما أمر الله باتباعها . عودة لمبادئ القرآن والسنة النبوية التي طبقها عملياً الرعيل الأول من المسلمين كنظام للحياة .

وبعيداً عن تجارب الضعف والتحلل في جانب ، والشعور بالقدرة والحياة والاهتمام الشديد بعظمة أهداف الإسلام في الجانب الآخر ، فإن الرغبة أكيدة في إعادة تشكيل الوضع الراهن في كل ركن من أرجاء العالم الإسلامي .

في كل مكان سمّت الحركات نفسها سلفية ، في ثقة وعزم على إعادة تشكيل الحاضر على شاكلة الماضي وعظمته لتعيد للإسلام مجده وللنظرة الإسلامية عزها على دعائمها الصلبة التي أسسها الرسول ﷺ ، وصحابته الراشدون ، ذلك التصميم كان نابعاً من ضمائرهم وهدف مساعهم الإصلاحية .

من هنا كانت تسميتهم وكانت طبيعة حركاتهم الإصلاحية . وكان من الواضح أن التربية هي ميدانهم الأساسي .

لقد حاولت زاوية الصوفية أن تكون هدفاً للإصلاح وبالتالي محلاً لتنظير جديد ( كما هو الحال في الطريقة النقشبندية للشيخ أحمد سيد هندي من الهند ، أو السنوسية والتيجانية في شمال أفريقيا ) .

وكذلك حاولت المدارس والكتليات الإسلامية العامة كما في الحركات الإصلاحية للأفغاني وسيد أحمد خان ومحمد عبده .

لقد تجددت مناهج المدارس لتواكب الروح الجديدة وتسابقت كل من الزاوية والمدرسة في تنشئة جيل من المسلمين القادرين على تحقيق المثل العليا كما فعل الأسلاف .

**القوة الثانية :** هي تيار التحديث . الذي ينبثق أيضاً من نفس المنطلق ، وبرغم ذلك قد اختار طريقاً آخر ألا وهو تقليد الغرب . هذا الطريق يعتمد على تبني طرق الغربيين التنظيمية ومهاراتهم وأفكارهم وبالتالي السماح لهم بفتح مدارس لتعليم المسلمين أو إرسالهم للدراسة في معاهد أوروبا .

وعندما يقع أي بلد إسلامي تحت الاحتلال الأوروبي ، فإن مثل هذه المقاييس لا تصبح خيارات يستطيع المسلمون أخذها بحرية وإنما تصبح أمراً محتوماً . إن الحراب الأوروبية تقف خلف المدارس الجديدة ، تحملها كتبهم المدرسية أو أفكارهم أو مدرسوهم القادمون مباشرة من الغرب .

كان هدف المدارس الجديدة من خلال الاستعمار هو التبشير المسيحي بين المسلمين أو على الأقل زعزعة إيمانهم بعقيدتهم ، وزيادة تعلقهم بالدينا ، وذلك بصيغهم بالثقافة الأوروبية وبالتالي يصبح تعاونهم مع الغزاة المستعمرين أمراً ميسوراً .. وأخيراً لجعلهم بعيدين عن علوم الطبيعة ..

بعيدين عن أسرار القوة العسكرية ومن ثم لا يهددون الوجود الأوروبي في العالم الإسلامي .  
عندما انسحبت الإدارات الاستعمارية ، تركوا زمام القوة في أيدي المتخرجين من هذه المدارس ، لأنهم كانوا أنسب الفئات لإطالة الوجود الاستعماري تحت أفتحة أخرى .  
وهكذا أعطيت هذه المدارس فرصة للحياة كما منحت قوة جديدة للاستمرار هي قوة القومية والتقدم واللاحاق بالمستعمرين السابقين . لقد أعدوا إعداداً يؤهلهم لتدريب الجيل الجديد من العلماء والفنيين على قيادة الحياة الإنسانية نحو الهدف المنشود .

وقد تلقى التصوف ضربات قوية من كلا تياري التعليم ، التقليدي والتجديدي . وكذلك تلقت نفس الضربات الخرافات والحزبيلات التي التصقت به . وللالتحاق بكلا النوعين من المدارس كان لابد من تحرير الدارس من هيمنة شيخ الطريقة الصوفية عليه . ومن ثم فقد أنجزت المدرستان على الأقل واحداً من متطلبات الإصلاح .

فقد تمكنتا — على وجه التحديد — من تنقية الوعي الفكري من التصوف المتآكل ومن الخضوع لسلطانه .

وحتى الآن مازالت المدرستان ضعيفتين جدا رغم ما تبدلانه من جهد للاستمرار في تحقيق أهدافهما الإيجابية .

فلم تنجح بعد المدرسة التقليدية في ترجمة التصور الإسلامي إلى نموذج قادر على إثبات نفسه والصمود على أرض صلبة أمام أعدائه .

ولم تنجح المدرسة التجديدية في استزراع التصور الأوروبي الذي يمثل المصدر الحقيقي لقوتهم وإبداعهم . فضلاً عن أنها بقيت شوهاء مجردة من الحياة ومن القدرة على النمو .

إن المدارس التجديدية في العالم الإسلامي تقلد الغرب دون إدراك لروحه — ناهيك عن احتوائها — ولذلك فقد حُكِمَ عليهم بالآل ينتجوا شيئاً أكثر من التقليد المتواضع . وقد أنتجوا فعلاً عدة أجيال على هذه الشاكلة .

لقد شهد هذان التياران التربويان المتشعبان تاريخاً عاصفاً . وكانت تلك العواصف تهدأ — في العهد الاستعماري — بأحد عاملين ، بالوجود العسكري الأوروبي كحماية ، وبرغبة المسلمين في تعلم الحيل الجديدة للمعرفة الأوروبية على أمل الوصول إلى مركز قوة كافٍ لمعارضتهم فيما بعد .. وقد انتشرت المدرسة التجديدية في عهد الاستقلال ولاقت قبولاً من عددٍ كبير من المسلمين على أنها طريقهم إلى التقدم الوطني وإلى إعادة البناء الذاتي وإلى تمكين الأمة من السير قدماً في مضاهاة الغرب .

## ب : اتحاد الأمة :

لقد جاء الإسلام لخدمة الأهداف العليا للمجتمع الانساني كافة — كجزء مكمل لرسالته .

ويمكننا أن نؤكد أن الفروق بين الناس محتملة الوجود — بل هي واجبة — تبعاً لتفاوتهم في الأعمال التي يؤدونها والفضائل التي يتحلون بها . ولكن أي تفاضل بينهم ، قد اعتُبر منذ الأزل ومنذ نشأة الخلق الأولى تعبيراً عن علاقة المخلوق بالخالق عز وجل ، ومن ثم فهو تعبير عن وحدانيته وسموه . حيث لا يوجد ثمة تعارض بين صفات الله المقدسة وبين ذلك التفاضل القائم فيما بين مخلوقاته منذ نشأتهم .

لكل ذلك فقد اعتبر الإسلام العنصرية أو أي نظام يقوم على الانتخاب أو الاختيار أو على أساس طبقي أو عرقي أو عصبى كتحدٍ للتوحيد . ولذلك صارع العصبية القبلية حتى النهاية أينما قابلها ، مبتدئاً بمهداها الرئيسي .. مكة .

ومن جهة أخرى فلم يغفل الإسلام الطبيعة الدقيقة للحياة الانسانية ، فلقد اعترف بالعائلة في أوسع نطاق لها وعزز

ولقد عمّ شعور في العالم الإسلامي في العقدين الأخيرين هو على وجه التحديد — أن المدارس التجديدية قد فشلت في انجاز ما وعدت به ، فالدول التي تدور في فلك التجديد والتقدم ما زالت على حالها من الضعف والوهن رغم عدم وجود طرق صوفية في الوقت الحاضر تعلق عليها فشلها . ذلك الشعور هو الذي يقف وراء إغلاق

الجامعات الإيرانية ومساندة الثورة ، وهو في الحقيقة نفس الشعور الذي وراء المؤتمرات الدولية الأربع في التعليم الإسلامي والتي خطط لها ونظمت من قبل السعودية .

وهو نفسه أيضاً الذي يقف وراء محاولات المعهد الدولي للفكر الإسلامي « حول أسلمة المعرفة » .

ليس معنى ذلك أن هذا الشعور سيمهد الطريق أمام التعليم في المستقبل ويجعله سهلاً ميسراً فالمقاومة له ستزداد حتى تكتمل ترجمة ونقل المنظور الإسلامي إلى نموذج واقعي معاصر .

ومع ذلك فسوف يشهد القرن المقبل التمرد المصحوب بالثورة الحقيقية وبالتحديد عودة إلى المنظور السلفي وإعادة صياغتها بما يتلاءم والقرن المقبل .

تماسكها وصلابتها بقوانين الثبات والوراثة ،  
ولقد اعترف أيضاً بالكيانات العرقية الممثلة  
في اللغة والعادات بل واتخذته كأساس للتغير  
المطلوب وإثراء الحضارة الإسلامية ، طالما  
توافقت هذه الكيانات العرقية مع متطلبات  
الشريعة الإسلامية .

لقد فرق الإسلام بين النزعة الوطنية ،  
والنزعة الشعبوية . الوطنية كواجب يفترض  
أن يقوم به الانسان بشيء من الأفضلية  
والتمييز يتناسبان مع قربه من بني وطنه وما  
عليه من حق الدفاع عنهم . والشعبوية التي  
يتنازل فيها الانسان عن قيمه لوجوده العرقي  
حتى ولو كان ذلك على حساب مصلحة  
الأمة الإسلامية .

إن العالم الإسلامي يطالعا اليوم بمثل هذا  
التنوع الكبير من الثقافات البديلة بكل دقة  
— لانه لم يكن من هدف الإسلام تدمير  
الاقليمية ولا العرقية . ولكن كان هدفه  
ترويضها لجعلها تخدم مصلحة الجميع .

وكما روض الإسلام النزعات العرقية فقد  
أثرها باللغة العربية وعلومها ، والقانون  
وعلومه والآداب والعلوم الإسلامية المختلفة .  
لقد أزال الحواجز وجعل من كل كيان عرقي

مجتمعا مفتوحا يسمح بتدفق القوى البشرية  
من مكان إلى آخر وكذلك يسمح بتدفق  
الثروات والعمل والأفكار والعلم والثقافة . أي  
أنه أزال الحواجز والحدود بين أرجاء العالم  
الإسلامي . وعلى سبيل المثال فقد كان  
باستطاعة قاضي جاوا أو طشقند أو بخاري  
أن ينزل إلى مكة أو القاهرة أو دار السلام  
ويستقبل فيها بما يليق بمكانته العلمية والأدبية  
كما كان بوسعه أن يتزوج من أي بلد  
إسلامي دون اعتراض ويقضي بقية حياته  
كسائر المواطنين .

وعلى الرغم من استمرار السيطرة  
السياسية العسكرية للدولة الإسلامية واحدة  
( دولة الخلافة ) على العالم الإسلامي لحقبة  
من الزمن فاقت أي فترة استعمار عالمي ،  
إلا أن الاقاليم المختلفة كانت تعتمد على  
نظمها السياسية الخاصة بها محققة بذلك  
نوعاً من الاستقلال . ولم تدمر تلك الأنظمة  
المحلية بقدوم الإسلام إذا كانت هي سابقة  
عليه لأن الإسلام لم يذهب إلى هذه المواطن  
بهدف تقييد الحريات السياسية . أو أنهم  
تقدموا تبعاً لتقدم الإسلام لأن الأسلمة  
تسري بسرعة أكثر من التعريب بما بينهما من  
اتحاد ضمني وتجانس على مستويات الثقافة  
المختلفة .

ولم يكن التقسيم إلى دويلات تحت إمرة  
حاكم أو أمير ذا تأثير يذكر على الوحدة التي

الصدام به متصورين أنه ليست هناك وسائل أخرى لمحاربه سوى منافسته .

ثالثاً : بانسحاب الاستعمار وإحلال محله دولاً مستقلة على أساس من التجزئة المحلية .. وجد العالم الإسلامي نفسه مجزئاً إلى دويلات قومية منفصلة . وفي النصف قرن الأخير لم تتحد فقط هذه الدول مع بعضها البعض .. بل وعملوا ضد مصالح بعضهم .. وشنوا حروباً ضد بعضهم البعض .

اليوم لا تكاد توجد حدود بين دول إسلامية لم تشهد توتراً أو اغتصاباً وإراقة دماء . وأسوأ هذه الحروب كانت حرب اليمن — السعودية ، وحرب اليمن — مصر ، وحرب اليمن مع اليمن ، وحرب اليمن وسلطنة عمان ، وحرب الباكستان مع بنجلادش والمواجهة الماليزية الاندونيسية في كاليمانتان ( Kalimantan ) ، والمجابهة الجزائرية المغربية في الصحراء ، والحرب العراقية الإيرانية والتوتر بين مصر وليبيا ، وبين السودان وليبيا ، وبين سوريا والاردن ، وبين سوريا والعراق ، إلخ ...

إن القومية أو بمعنى آخر الشعبية الجديدة ليست في طريقها للإختفاء . بل في الحقيقة إنها تنمو مكتسبة مزيداً من المؤيدين من بين صفوف المتعلمين في العالم

يجمعها الإيمان سواء في مجال القانون أو التعليم أو الفنون ، والحقيقة أن مظاهر الاتحاد السياسي قد استمرت في صور منها الهدايا التي كانت تقدم سنوياً إلى الخليفة ، وفي خطبة الجمعة حيث يتوسل فيها إلى الله أن يحفظ الخليفة ويديم حكمه ويمنحه النصر على الأعداء .

وحتى في حالات الانفصال التي حدثت وأعلن فيها الحاكم نفسه خليفة على الأقليم الذي يحكمه مثل الأمويين في قرطبة والفاطميين في القاهرة — حتى في هذه الحالات — استمرت الوحدة في القانون والأنظمة الدينية وفي الفنون والعلوم . بل وكانت تدعم ويحرص على تقويتها .

إن النزعة القومية قد انتشرت في العصر الحديث بين الأقاليم الإسلامية بتأثير من الغرب سواء كانت هذه الأقاليم تخضع لنظام استعماري مباشر أو غير مباشر من خلال نزعة التقليد مذكين بذلك في خبث للنزعة الشعبية ولقد كانت نيران هذه الفكرة تزكى باستمرار بواسطة القوى الغربية ، من جهة بمتابعة اهتماماتهم من خلال التقسيم والاحتلال ، ومن جهة أخرى لأن الانفصال روح يعرفها الاستعماريون جيداً ويشجعونها .

ثانياً : نفس النيران كانت تغذى بواسطة المواطنين التواقين لمحاربة الغرب أو



الإسلامي . أما الباقون وهم يشكلون الغالبية العظمى فلم ينهبوا بادعاءاتها .. إنهم يسيرون وراء القيادة وغدا سوف يمنحون تأييدهم لقيادة إسلامية بحماس أكثر مما يؤيدون به قادة القوميات اليوم .

والسبب في أن القومية لا تحظى لديهم إلا بالقليل من القبول هو شعورهم الإسلامي القائم أساساً على التوحيد الذي لا يستطيع أن يفهم — دحك من الإذعان إلى — مبدأ التعصب العرقي والذي يعتبر العرقية غاية في حد ذاتها ويعرف الإنسان على أساس من الصفات العرقية المميزة .

أما القومية فهي عديدة من النزعات العرقية المختلفة والتي تنافست مع عالمية الإسلام لأكثر من جيل . وقد أسست وشجعت في باديء الأمر بواسطة الاستعماريين والان تحصل على الدعم من معظم حكومات العالم الإسلامي . وعلى الأرجح أن القومية ستستمر في النمو — بغض النظر عن ذلك التأيد — ولكنها لن تكسب الجولة الأخيرة . ومن جهة أخرى فإن عالمية الإسلام ووحدته قد أصيبتا بنكسات في عقول الشعوب المسلمة في هذا القرن فلقد كان يدافع عنه من قبل التقليديون الذين لم يكونوا يحظون بكثير من الاحترام بين الطبقات المتعلمة . إن دعاة الوحدة الإسلامية كانوا في حالة عجز وكانت

حججهم واهية بسبب جهلهم بحجج الغرب والتي طور بها أنصار التجديد مناقشتهم من أجل تقدم القومية .

لقد بلغت القومية أوجها بين المسلمين في الفترة من ١٩٥٦ — ١٩٦٧ ، وكان كل من جمال عبدالناصر وأحمد سوكارنو من أشد الداعين لها . وهرعت السياسة السوفيتية لتأييدها . ومع ذلك ففشلتها في إنجاز ما وعدت به — وبالتحديد الاتحاد القومي ، القوة ، التحرر ، الكرامة ، الرخاء الاقتصادي .. فشلتها في كل ذلك أدانها في أعين الجميع ، وكذلك التحول العنيف لمراكز القوى في اندونيسيا وحرب الأيام الستة .. والحرب الباكستانية .. كل تلك العوامل جعلت قلاع القومية تنهار في أعين المسلمين وضمائرهم .

ومنذ ذلك الحين فقد تفتحت أعين المسلمين على نقاط ضعف النظم القومية في مجالات السياسة ، والاقتصاد ، وعلى المستوى الاجتماعي وكذلك في الزراعة .

وفي نفس الوقت الذي تطلبت فيه الوحدة الإسلامية — كهدف أسمى للحركة الإسلامية وكمحتوى تكميلي للنظرة الإسلامية مدرسين جدد ومدافعين جدد ، فإنه كان يتم اضطهاد المسلمين وإقصائهم إلى أبعد ما يمكن عن مراكز القوى وبعيداً

والاصلاح الزراعي ، وتحسين سبل التجارة ، وإعادة بناء المجتمع على مؤسسات سياسية واجتماعية أكثر حيوية ، كان له تصور سابق لدى الشعوب الإسلامية في القرنين السابقين .

ولقد كان المثل الأعلى للتطور في أي مكان هو النموذج الغربي والذي بدأ أولاً في الدولة العثمانية ومصر ثم في الدول الإسلامية بعد حصولها على الاستقلال ، وقد صممت المؤسسات بحيث تربط الاقتصاد الوطني بالبلد المحتل بصفة أساسية . وكان ذلك مطبقاً في التعليم وفي الزراعة والصناعة كما هو في التجارة ، لقد عنوا بربط البلاد برخاء وازدهار البلد المحتل ، بينما ظلت التنظيمات السياسية للبلاد الإسلامية تزود ما أمكن بالخطط السياسية في الدول الاستعمارية عند الحاجة على أمل استبعاد فرصة التغيير الجذري .

وكانت حالة الزراعة في العالم الإسلامي متشابهة ، فبينما كانت النظم الاقتصادية تمنع وصول القمح السوري والبلع العراقي إلى القاهرة — والأرز المصري والسكر والقطن إلى سوريا والعراق .. فقد كان على الجميع أن يصعدوا لإنتاجهم إلى الدولة الاستعمارية التي توزعه بعد ذلك بما تراه مناسباً . في نفس الوقت الذي كانت فيه رؤوس الأموال المستثمرة تصب عند الملاك من الطبقات

عن مجابهة الجماهير . من أجل ذلك فقد لجأوا إلى صب نقدهم على النظم القومية وتدريب مجندين جدد من أجل الحركة الإسلامية العالمية .

إن العقيدة الإسلامية وما ولدته من حركة عالمية قد أصبحت نوعاً من الملاذ الفكري والروحي لأولئك الجامعيين من أنصار القومية العلمانية أو التعليم الأجنبي ، وقد تحرروا من الوهم بسبب فشل القومية ، وذلك دعم طاقة الحركة لإقناع الآخرين بحوية وملاءمة العقيدة الإسلامية .

واليوم فالحركة الإسلامية هي الأقوى والأكثر أنصاراً في أوساط الجامعات الإسلامية في العالم أجمع .

إن استئناف القضية الإسلامية محكوم بالتصور الاتحادي ، ومرتبط بازدياد عدد المتعلمين المؤيدين للقضية بغض النظر عن التحاقهم بالحركة أم لا . لقد جاء الضعف الحالي لجامعة الدول العربية متوافقاً مع النهضة في نفوذ منظمة العالم الإسلامي والحركات الإسلامية في معظم أرجاء البلاد الإسلامية .

ج — التطور :

١ — وجهة النظر القومية :

إن التطور في اتجاه التعليم والتصنيع ،

المعلن مع جدول أعمال حركة الإخوان المسلمين بكامل تفصيلاته ، ومع ذلك فقد كانت الثورة غير كفاء لانجاز ذلك البرنامج .. ومن هنا فقد فشلت .

ولم تكن الصناعة بأحسن حال .. وإنما كانت بنفس السوء . فقد فشلت الدعاية الاستهلاكية بين جموع الطبقة المتوسطة ، والتأسي بالارستقراطيين المتشبهين بالغرب .. كل ذلك جعل طلب البلد على المنتجات المصنعة بهم لا يشجع . مع ضغط مصاريف الدفاع بنفس المقدار . وعلى الرغم من أن بعض الحكومات القومية في العالم الإسلامي قد وضعت سياسات وبرامج اقتصادية عديدة إلا أن القليل منها قد نجح . والسبب في فساد تلك الجهود هي نقاط الضعف التالية :—

أولاً : كان الاهتمام منصباً على صناعات محددة تدعم مركز الحكومة ، وليس منصباً على سلسلة انتاجية متكاملة تستطيع كل مرحلة أن تساند التالية لها دون مساعدة من الدول الاستعمارية .

ثانياً : التطور الصناعي يحتاج إلى اسواق كبيرة وثابتة وتلك كانت غير متوفرة بسبب الانعزالية وسياسة الحماية من قبل الحكومات القومية .

الكبرى بسبب الروابط السياسية . تلك المبالغ التي كانت غالباً ما تنفق في المضاربات والمغامرات .

وفوق ذلك كله .. فإن إغراء الحياة في المدينة كارتفاع الأجر والرغبة في تقليد الطبقة الارستقراطية .. اثلخ كل تلك العوامل اجتذبت الفلاح بعيداً عن الأرض وأودعته في مدن الأكواخ حول المدن . أما أولئك الذين قاوموا إغراء الهجرة إلى المدينة فقد كانوا مشجعين من الحكومة — مثلهم مثل المضاربين — ليزرعوا محاصيل ذات قيمة عالية للتصدير .

وبذلك تمكن الاستعمار من زعزعة أسس حياتهم الزراعية وجعل البلد كله معتمداً على تصدير موارده الزراعية واحتياجاته الغذائية .. محرومين من معاهد البحث الكافية لاكتشاف امراض الزراعة وعلاجها ومحرومين من التصنيع ومن فتح اسواق لامتصاص الانتاج ، ومن برامج لتوعية الفلاحين لتحسين معيشتهم ، وهكذا تخبط حقل الزراعة في كل مكان .

وتلك كانت نقاط الشكوى ومطالب الإصلاح التي نادى بها الحركة الإسلامية في مصر عام ١٩٤٠ . فيما يخص الشؤون الداخلية للبلد .

ولقد نجحت ثورة ١٩٥٢ لتطابق جدولها

غير جديرة بإخلاص المسلمين وجهودهم .

## ٢ - وجهة النظر العالمية :

أولاً : إن الحركة الإسلامية متشوقة بكل تأكيد لأن يأخذ التطور دوره وينجح . ولكن على أساس ألا يعتني بجانب من الانسان ويهمل الجوانب الأخرى — أما ما يعرفه عن النموذج الغربي وما مدى تطبيق هذا النموذج على العالم الإسلامي فقد برهن على ذلك باسهاب والسؤال الآن .. هل يبحث العالم الإسلامي عن احتياجات صناعية ومتطلبات ووسائل رفاهية لأن ذلك هو الاعتبار الواضح الجلي للتطور الصناعي في العالم الإسلامي ؟ .. كوكاكولا — مشروبات كحولية — مستحضرات تجميل مثلها مثل المكيفات ، الملابس الغربية للرجال والنساء والأطفال .. كل هذا كان يحظى بأولوية التطور يلي ذلك الراديو ، التلفزيون ، المستحضرات الطبية ، المبردات ، السيارات ، الجرافات .

أما عن المحاصيل النباتية فهي تعتمد دائماً على الامدادات التي تستورد والتي يمكن منعها في أي وقت يشاء الاستعمار .

والأكثر أهمية من ذلك كله الأولويات الخاطئة المعنية لبرامج التطور وبعدها الشديد عن المثل العليا وتصورات العدالة الاجتماعية . تلك كانت الحال على المستوى المحلي ( بين

ثالثاً : وقوف القوى الاستعمارية وراء تلك الاسواق . كل واحد من الأسباب السابقة كاف بمفرده أن يعوق التطور الصناعي ، واجتماعهم معاً جعله أمراً مستحيلاً .

إن الخلافات السياسية بين مصر والعالم العربي التي نجمت عن توقيع اتفاقية كامب دافيد ، قد محت تقريباً في سنوات قليلة المكاسب الصناعية المصرية التي حققتها في عدة قرون — ولعل مناداة الحركة الإسلامية بإصرار بوحدة وادي النيل ( السودان ومصر ) ووحدة الوادي بما يحيطه من صحراء ( ليبيا وتشاد — اريتريا والصومال ) ليعتبر الخطوة الأولى نحو وحدة إسلامية تحتذى بوحدات إقليمية في المغرب والهلل الخصب .. الخ كل ذلك أمر أصبح أساسياً بدونه لا يمكن أن يكون هناك تصنيع .

والخلاصة ، حتى إذا كانت الرغبة في التطور — الزراعي والصناعي — على الأراضي التي تحكمها حكومات قومية على النمط الغربي — مسلماً به ، فإن برامج التنمية للنصف قرن الأخير لتشهد بفشلهم في إنجاز أهدافهم الذاتية .

ولعل أهم هذه الاعتبارات هو الشحنة الإسلامية التي تعتبر أن التنمية على النظام الغربي لا تتفق وروح الإسلام ومن هنا فهي

حق الانتفاع بها ووضع أقصى العقوبات على ذلك ، لأن وراء ذلك التصرف تقف حالة من اللا مسئولية الواضحة ، وقصر نظر اقتصادي ونوع من الفساد الأخلاقي .

ثالثاً : إن النموذج الغربي للتنمية يعني بالانتاج الاقتصادي والاستهلاك بصفة مركزة .. واهتمامه بكيفية حياة الناس يكاد لا يوجد .

فالصناعة تدعو الناس للهجرة من القرية إلى المدينة دون الاهتمام بصحتهم الاجتماعية .. والمشكلة ليست فقط في الحد الأدنى من الأجر ولكن في تعليم العامل كيف ينفق مكاسبه بأحسن صوره ، وإدارة حياته وخصوصاً وقت فراغه في غايات تعود عليه وعلى أسرته وأمته بالخير . وإذا لم تتحمل الصناعة مسئوليتها تجاه الصحة الاجتماعية والثقافية والروحية للعمال .. فسوف لا تتقابل أبداً مع أهداف الإسلام وغاياته .

رابعاً : كون النموذج الغربي للتطور مهتماً بالفائدة فهو يميل غالباً لتركيز الثروة في أيدي القلة التي توظفها لمصلحتها المنافية لشروط العدالة الاجتماعية ، ومن هنا فالصرخة المدوية للأصوات الاسلامية في كل مكان خلال القرن الأخير المنادية بالعدالة الاجتماعية ، كانت متحملة مسئولية هذه الصيحات لدرجة أن الأنظمة القومية سنت

احتياجات الطبقات المختلفة للجماهير ) . وعلى مستوى العالم الإسلامي ( بين احتياجات القطاعات المختلفة من الأمة الإسلامية ) .

وبرغم ذلك فالسؤال عن العدالة الاجتماعية منفصل عن ذلك ، وقصور النظر في الناحية الاقتصادية سبب الفشل وقصر العمر لمعظم برامج التنمية ، وليس المطلوب أكثر من هدف جاد وجهد جاد وبالتحديد .. تخطيط يأخذ في الاعتبار كل احتياجات العالم الإسلامي ، أو على الأقل جزءاً اقتصادياً منه قابلاً للتطبيق .. مثل التغلب على إزاحة العوائق التي تعوق انتقال المواد الخام أو المنتجات المصنعة بين الدول ، لكن لا النظام القومي ولا الاستعمار الجديد للدول المناصرة للصناعة سيسمحان بمثل هذه المساواة أو اتحاد العملاء .

ثانياً : إن النموذج الغربي للتطور مبني على نظام الفائدة بأعلى درجاتها ، ومن ثم على الانتاج فالاستهلاك ، وذلك بالتالي يستلزم قدراً من الغش من خلال اعلانات مركزة مع بعض الاهمال في نوعية الانتاج .. ولكن حق الانتفاع بالطبيعة والتي سخرها الله سبحانه وتعالى للبشر يجب ألا يذهب سدى وبلا ضابط ، وإلا فسوف ينقلب توازن العالم البيئي .. ولذلك فقد عنى الإسلام بالخسارة التي تلحق بالبيئة من جراء سوء استعمال

بالبطالة والنشاط ، بالمعاهد المالية وبكل أعضاء المجتمع وبمساعيها التعاونية لعل كل تلك الاعتبارات تحظى بشعور فطري لا نهائي .

وسوف يشهد القرن المقبل — إن شاء الله — هذا التحدي الآخذ في التحوين حملة النظرة الإسلامية من جهة وبين أولئك العلمانيين والقوميين والناصرين للغرب من جهة أخرى .

القوانين الاجتماعية ، وسوغتها للأمة على أنها تطبيقات لاشتراكية الإسلام .. ولسوء الحظ لم يكونوا مسلمين ولا اشتراكيين وكل ما فعلوه هو استبدال طبقة من الإداريين مكان أخرى لإدارة رؤوس الأموال .

إن النموذج الإسلامي للتطور لم يعمل بعد ، ولعل وثاقة صلة الإسلام بالمصنع ، بالجمعية التجارية ، بالمدينة كتنظيم مدني ، بالمرح ، بمجموع الطبقات المتوسطة ،

